

الاشتغال الرمزي لنموذج الشخصيات  
في رواية " يعقوب وأبناؤه " لإبراهيم الكوني  
د . نسيمه علوي جامعة سكيكدة

## المخلص

اهتمّ الباحثون بموقع الشخصية داخل المسار السردي من خلال تحديد علاقتها بالعناصر السردية الأخرى التي تمنحها القيمة الرمزية كما تساعد على اختيار الوظيفة الموكلة إليها من طرف الروائي الذي يعمل على اختيار النماذج الفاعلة في تحفيز حركة السرد نحو غايات محددة يحددها موضوع الرواية ، إذ كانت الأعمال الكلاسيكية تركّز اهتمامها على تأطير الجانب التاريخي والاجتماعي للشخصية حتى تصبح صورة مماثلة للواقع المعيش ، في حين غيرت الأعمال المعاصرة طريقة التداول السردى لعنصر الشخصية باعتبارها كائنا ورقيا فالشخصية في العالم الروائي ليست وجودا واقعا بقدر ما هي مفهوم تخييلي.

### Summary

*Researchers were interested in the location of characters within the narrative track by defining its relationship with other narrative elements granted by the symbolic value and that help them in choosing the function assigned to it by the novelist , who works on the selection of effective models in motivating narrative movement toward specific targets determined by the subject of the novel, and if the classic writings focused their attention on the framing of the historical and social side of the character so that it becomes a similar image of reality Living, the contemporary works changed their narrative methods to the element of character as a paper being, because in the narrative world characters are not a real existence but an imaginative concept .*

### تقديم:

لقد تغيرت غايات الفن الروائي المعاصر تبعا لراهنية الكتابة النقدية الآنية التي تتجه نحو التجديد وإعادة تشكيل مقاطع النص السردى بإضافة نقاط مضيئة تساعد على فتح الآفاق نحو قراءة إبداعية واعية.

لم تعد الرواية جميعا حكايا لأحداث تم وقوعها أو تخيلها في فترة كتابية معينة بل غدت فناً شاملاً يجمع مختلف أفانين القول النثري والشعري معاً، إذ كسرت الرواية الجديدة قوانين السرد الكلاسيكي وأصبحت فضاء رحباً للتجريب الكتابي والخرق اللغوي، لذلك نشأت لدى مؤلفها الرغبة في تطويع جميع آليات كتابة مختلف الأنواع الأدبية وتطبيقها على النص الروائي من أجل إنشاء النموذج الكامل للإبداع الأدبي.

إن اشتغال النقد المعاصر ينصب على الاهتمام بإنتاج السرديات، وذلك يرجع إلى تطور تقنيات الإبلاغ النثري الراهن البعيد عن نقل صور الحقيقة الإنسانية على سذاجتها وكيوناتها الأولى دون صقل أو تهذيب.

على غرار هذا الطرح نشأت رواية يعقوب وأبناؤه لإبراهيم الكوني كنص سردي يحترف تعرية الخطيئة الآدمية وكشف دوافعها وفق منظور جديد، يأخذ من النموذج الحقيقي للقصة موضوعه وعلائقه العامة ثم يعمل على تحريف الواقعة التاريخية وتحليلها إلى شذرات خفية تغيب بين بنيات النص الجديد. إن نص يعقوب وأبناؤه ينطلق من فكرة العدم الأبوي والخواء الروحي والعراء المكاني ليؤثت لبنية روائية دالة على ذاتها ولا تخرج معانيها عن شعرية غامضة تولد تحت طرائق تركيب النص.

تشكل مدونة " يعقوب وأبناؤه " مجموعة من الاقتباسات والإحالات الحكائية المتوارثة التي وظفت في قالب فني متجانس يجمع بين حقيقة الشخصيات الآدمية وتجاوزات المغامرة الإبداعية، داخل فضاء النص المتخيل الذي تضطرب داخله حدود الواقع وصور الحقيقة الإنسانية لتحلّ محلها الاختراقات السردية التي تشوش معالم النموذج المحاكي في لغة الأدب.

### 1- خصائص الحكى عند إبراهيم الكوني:

بداية تجارب الكوني مع المدونة السردية أخذت مجالاً واسعاً لتبيان أثر المكان الصحراوي على ذاكرة السارد الذي ظفرت به سنوات الغربة

والترحال لينزل في آخر أعماله حيث المدينة والحضارة الجديدة. إن المقارنة بين بداية الحكاية في رواية كتبت سنة 1991 (ديوان النثر البري) يختلف عن قرينتها التي كتبت سنة 2007 (يعقوب وأبناؤه) ، وهذا المثال ينطبق على كافة المدونات بالنظر إلى سنة ولادتها ، ففي هذين المقطعين يبرز الفرق من حيث الموضوع وطريقة الكتابة:

(( استمرت الصحراء تمتد وتتباعد طوال السفر. العراء الفسيح القاسي، الأبدى يلد في نهايته أفقا لثيما، والأفق يلد، بعد مسير الأفق ، وكلما توغلا في الرحلة كلما ازداد الأفق خلودا، وإصرارا على التوالد، في البرزخ الممدود بين العراء والأفق تدقق السراب، ومدّ لسانا لعوبا لا يتوقف عن الغمز والتغنج والإغواء)).<sup>(1)</sup>

الروائي في بداية أعماله يستمتع بوصف الصحراء ، إذ يغطيها بغلالة شفاقة تنشئها لغته الإبداعية ، وفي كل عمل لا يبتعد عن هذه المقدمات الطليّة التي تصف الرّمْل والأفق والخواء ولا تصف الخلان والحبيبات كما يفعل الشعراء القدامى ، ولما عيب على الكوني فعل ذلك اتّجه نحو المباشرة والآنية في وصف الواقعة الدّالة على عنوان الرواية كما يظهر في نصّ يعقوب وأبناؤه: (( يوم أمر الباشا بتطهير القصر من المرايا هرع الأمير حسن للمثول بين يديه للاستفهام عن حقيقة هذا العمل الذي تدّر به الأعيان وجرت سيرته حتى على السنة الدّهماء ، فما كان من الباشا إلا أنأخذ سليله البكر من يده واختلى به في إحدى زوايا القصر قائلا أنّه يريد أن يروي له سيرة)).<sup>(2)</sup>

لقد اتجه إبراهيم الكوني إلى ملامسة التجربة الفعلية للمواطن العربي من خلال عناوين أعماله الجديدة الدّالة على مركزية سلطة الحكم ، لكنّها لا تفصح كعادة الروايات العربيّة عن أسماء وأماكن حقيقيّة خوفا

من مصادرة الأعمال لذلك يتم اللجوء إلى تضليل الأسماء كما جاء في روايتي (يعقوب وأبناؤه) و(قابيل أين أخوك هابيل) .

الصدام بين السلطة والكتاب قديم، لذلك (( دأب الأدب منذ أن استنفذ الإنسان الوسائل التي تكفل له حرية التعبير على تعرية هذه السلطات ، وعلى قضا مضاجعها أحيانا، وعلى هجاء ممارساتها الاستبدادية بوسائله الجمالية الخاصة)).(3)

الكوني لا يستطيع مواجهة الحاكم العربي ولكنّه يبني له معادلا موضوعيا إذ يقارنه بالنموذج الأسطوري حينما ويغيّب اسمه حينما آخر، وفي كلّ الحالات تؤدي اللغة الرمزية وظيفة الرسالة التثويرية لقضايا الأمة العربية ومن أكثر السمات المميزة لهذا التجلي حفاوة الروائيين ببدائل الاستبداد أكثر من حفاوتهم بتعريته وهجائه واستجلاء مرجعيّاته ، ومسوّج ذلك كما يبدو، الإمكانات الكثيرة التي يوفرها الجنس الروائي بوصفه فناً مشاكسا للواقع ، وليس مشاكلا له ، ويتيح قول ما لا يمكن قوله بوضوح ثمّ رغبة هؤلاء الروائيين في أن تتجاوز نصوصهم الروائية وظيفتها في رصد الواقع العربي والكشف عن معوقات تقدّمه الحضاري ، أي تملكه معرفيا إلى أداء وظيفة تثويرية، لا يتعين المتلقي على وعي هذا الواقع فحسب بل تدفعه إلى تغييره ((4).

وهذا هدف الأعمال الجديدة لإبراهيم الكوني التي تدفع القارئ نحو الإسقاط المباشر للعالم الحكائي على موقف المواطن العربي إزاء سلطة الحكم التي تفتقد أصول الديمقراطية الغربية.

أصبح الكوني يخشى لائمة القراء الذين اعتادوا وصف ديكور الصحراء الباهت المتقشّفة موادّه ، لذلك توجه نحو البحث عن أصناف الشخصيات الحاكمة والبايدة في التاريخ الليبي والعربي كي ينجز على

منوالها صوراً جديدة عن واقع مهمّش يعرفه الشرقي والغربي من أجل إنشاء موقع لائق بالرواية العربيّة وسط المحافل العالميّة.

الكوني يباغت القارئ العربي حينما يحيل النماذج الأسطوريّة العالميّة إلى فضاء الصّحراء فمثلاً يقول في مقدّمة رواية أنوبيس: (( وفي " أغاديس " نبّهني الرواة ودهاة المراعي إلى أمر، رأيتُه على جانب من الأهمية، عندما أكّدوا على عسر استخلاص السّلف " أنوبي " (أنوبيس) من أساطير الأقوام الصّحراويّة، لأنّ السّيرة كثيراً ما تداخلت مع أساطير الملاحم وسيّر القدماء)).(5)

تعود أسطورة أنوبيس إلى جذور يونانيّة كمعظم الأساطير و يتداولها الفراعنة كرمز لكاهن الحكمة، أما إبراهيم الكوني فيرجئ حضور الأدلّة العالميّة عن هويّة أنوبيس في نص الرواية ليجت عنه عبر الصّحراء الليبية(( تلمل في قلبي الحنين للوقوف على حقيقة " أنوبي " فخرجت للبحث عنه عبر صحرائي الكبرى اللانهائيّة، كما يخرج المغامرون من طلاب الكنوز الذين تعجّ بهم الصّحراء في ذلك الزّمان)).(6)

إنّ إحالة النماذج الأسطورية إلى فضاء الصّحراء الكبرى تعني إعادة بناء الصورة المجازية للنموذج، لذا يمكن استخدام الأساطير كرموز سيميائية تشغل دلالاتها عند بداية العمل الأدبي، لكن أن يشير الكاتب إلى تاريخ حدوثها دون العودة إلى مصادرها هذا ما يعدّ خرقاً لقانون الأدبيّة التي تستعير مواد التّخييل من النماذج الأسطورية ثم تعيد الأسماء إلى أماكنها الأصليّة.

إنّ محدودية المكونات الماديّة للفضاء تجعل الكتابة عن مظاهر الصحراء كتابة عن فردوس من عدم ، لذلك فصعوبة التّعبير عن عناصر مكانيّة متنوّعة يجعل إبراهيم الكوني يبدع في اختيار لغة بكر

لم يكتب بها أفرانه من الروائيين فمعظمهم كتب عن صحراء النّقط ، ولم يكتب عن صحراء الأزل.

مكوّنات الفضاء الجغرافي لخريطة الصّحراء الكبرى واضح المعالم رمل وجبل ومهاري وطوارق وترفاس ... المشكلة في بعث الحميميّة والألفة الغائبة بينها جميعا إذ لا يوجد حد فاصل بين الرّمل وثمرّة التّرفاس ، كما لا يوجد عناء في فهم العلاقة بين المهري والطارقي، لذلك لا يتعب الكوني في ضمّ الثنائيات إلى بعضها ونسج شبكة سردية عجبية بين المكوّنات الماديّة المحدودة لفضاء الصّحراء.

في رباعيّة الخسوف يعتصم الأهالي في الجبال هربا من لسع العقارب التي هاجمت القبيلة لذلك يطلب الشيخ " غوما " زعيم القبيلة من الأهالي ترك أعزّ ما يملكون والاعتصام بالجبل لنجاة الأرواح (( الصّحراء علّمتنا أن نترك أعزّ ما نملك في قعر الوادي كي يجرفه السيل ونلجأ إلى المرتفعات لإنقاذ النفس والخضوع للامتحان)).(7)

صعود الجبل ضرب من التّطهير الرّوحي لنزوات النّفس ، ففيه مشقّة وعناء ولكّنها من أجل فضاء سام بعيد عن عذاب الواحة التي لم تعد مكانا آمنا للعيش. في الرّمن العصيب زمن الاستعمار الفرنسي شكّلت سلسلة جبال الهوقار مأمنا للمدافعين عن وطنهم : (( قولوا له إنّ جبال الهوقار المنبوعة ستكون ساعده الأيمن في هذا العمل، إنني أعرفها وأخبرها جيّدا، رجل واحد خلف صخرة في جبال الهوقار يستطيع أن يببّد فيلقا كاملا)).(8)

كما يعمل الجبل كمكون أساسي لقيام الحكاية ففي " نزيّف الحجر " يتحدّث الرّوائي عن "الودّان" تيسالصحراء الذي يعتصم بالجبل إذا طورد لذلك سمّاه بطل الرّواية " أسّوف" بروح الجبل، على الصّخر العتيق رسم الطّوارق تاريخهم ودوّنت العلامات الأولى للوجود البشري

على الرّمال ، لذلك يفضّل ناشر أعمال الكوني وضع صور تاريخية عن جبال الصّحراء الكبرى كعتبة أولى لولوج عالم العجائبية الحكائيّة. المهاري أنيسة الطارقي في رحلته على الرّمال ولعلّها الحيوان العزيز والمهمّ على قلوب أصحابه، لذلك خصّص الكوني في رواية " التبر " صوتا سرديا " للمهري الأبلق " يتلاءم مع مقام الوظيفة المختارة له ، فرغم أنّه لا يملك لغة إلا أنه يعبر بصوته عن حالات سعادته وألمه ، لذلك (( الموازنة الدقيقة بين الصّوت والرّؤية عند الجمل والإنسان تجعل " التبر " واحدة من أهمّ الروايات العربيّة التي يتحوّل فيها الجمل إلى شخصيّة " إنسانية " قادرة على الاتصال والتّواصل بلا لغة ))<sup>(9)</sup>. لا يمكن التّفكير في عمل للكوني دون ذكر " المهري " وماله من علاقات حميميّة مع صاحبه تفكّ أسر العزلة المكانية التي يعيشها الرّجل الأزرق ، لذلك يدنّس الحيوان المقدّس لأنه الرّفيق والشّقيق في بعض الحالات ، كما له من الحقوق ما للإنسان من حماية وكرامة .

## 2- نمذجة الشخصيات في رواية ( يعقوب وأبناءؤه):

يقوم أيّ عمل روائي على عدد من العناصر البنائية المهمّة التي تمثّل المقولات الأساسية لتكوين أيّ محكي ، ومن المظاهر الدلالية لاشتغال المقولات التي يضعها المؤلّف صور الشخصيات الفاعلة في الحكى ، إذ يقدّم صاحب العمل مستنسخات بشرية بطرائق تخيلية تعمل على تفعيل صورة الكائنات الورقية من خلال الإجراءات التلّفظية المنسوبة إليها ، فالسياق التداولي لمحكي الأقوال يسمح بتحديد جنس الخطاب ، فأقوال الشخصيات التاريخية مثلا تختلف عن أقوال الشخصيات الأسطورية فالأولى يرتبط وصفها بالحقائق المثبتة ، أمّا الثانية فيتعلّق وصفها بما وراء اللغة إذ يتطلّب قدرا من التخييل والمبالغة اللغوية التي

تستعمل الملفوظ العجائبي والفعل الخورقي لبناء نموذج الشخصية الميثولوجية.

## 2-1 الشخصية الحكائية:

إنّ آليات إنتاج النص الروائي تفرض على صاحب الخطاب وضع مجالات محدّدة وواضحة لاشتغال الكائنات الورقية على المساحة الطباعية والزمنية المخصّصة لها ، إذ لا يمكن مثلا إهمال ذكر الصّفات الجسمانية والسيكولوجية للبطل داخل حكاية سيرية تعنى بوصف مظاهر الحياة اليومية لشخصية البطل الذي يمثل بؤرة المحكي، كما أنّ (( الشخصية وحدة دلالية ، باعتبارها مدلولاً لا متواصلاً ، وهي بمثابة شكل فارغ تقوم المحمولات المختلفة بملئها (الأفعال والصفات) ))<sup>(10)</sup>.

سنقوم في هذا المبحث بمقاربة بنية نموذج الشخصيات في رواية (يعقوب وأبناؤه) ، هذه الرواية التي تعدّ تكملة لملمحة (قابيل أين أخوك هايبيل) إذ يحافظ السارد على الشخصيات نفسها والأماكن ذاتها ولكنّه يترك المجال واسعاً لمحكي الأقبوالإذ تتبادل الفواعل السردية مهمة إنجاز المبنى الحكائي لذلك تطغى الحوارات داخل الأقسام الثلاثة للرواية ، كما يشتمل كل قسم على عدّة وحدات مرّقمة.

في القسم الأول يوطّر السارد الحياة الداخلية لأهل القصر (الباشا وأبناؤه والخدم) وخلالها يتمّ نقل حوار بين الباشا والأمير الذي يسائل أباه عن سبب محاباته لليهود وتهاونه مع النصاري ، وهذا حال عائلة القرمانلي التي ساءت في فترة حكمها أحوال المملكة بسبب لهو السلطان ورغبته في الانتقام من الممالك الأخرى ، إضافة إلى خواء الخزينة من الأموال و إصابة أهل المملكة بالمجاعة بسبب الطاعون ،

لذلك يقترح الخازنذار على الباشا بيع العبيد وبيع أواني الذهب أو مصادرة الزعفران من عند التجار لمواجهة الأزمة .

تعرّض المملكة لهجوم قوات مصطفى القرمانلي انتقاما لصفقة الزعفران التي استولت عليها الدولة ، أمّا القصر فيغرق في مشاكل الباشا وأبنائه ، فحسن بك يعشق المال والباشا يعشق النساء ويوسف يعشق العرش .

في القسم الثاني من الرواية يصف السارد مظاهر انتشار الطاعون في المملكة مع خواء الخزينة ما دفع الباشا إلى فرض المكوس على الناس. أمّا في القسم الثالث فيتحدّث السارد عن زوال نقمة الطاعون الذي حلّ بالمملكة وظهور أزمة أخرى حلّت بها وهي دخول جيش الإمبراطورية العثمانية على المملكة من جهة البحر ، لكنّ هذا الأمر لم يدم طويلا حيث انسحبت قوات الجيش العثماني واتجهت إلى الإسكندرية ، بينما استمرت الصراعات الداخلية بين الأبناء ؛ إذ وصلت العداوة بينهم إلى بلاط الباشا حيث قامت معركة دامية بالسيوف بين الأشقاء أمام مرأى والدهم مما أدى إلى إصابته بجلطة دماغية ، و تتوالى إثر ذلك المشاكل على المملكة إلى أن يغدر سيدي يوسف بأخيه ويرديه قتيلا في حزن أمّه .

تقدّم رواية ( يعقوب وأبناؤه) مشهدا دراميا يصف صراع الأشقاء على كرسي العرش ، إذ يدفع ولي الأمر برعيته إلى الهلاك لأجل الظفر بلقب السلطان والفوز بالعرش مقابل مصادرة أحلام الناس .

يقدم إبراهيم الكوني من خلال هذه الرواية نماذج بشرية مختلفة تحمل مواصفات شخصية معينة داخل المحكي لذلك أسهم التكتيف الحوار في التعرف إلى الطبائع الإنسانية المحتملة في أي نموذج بشري .

## 2-2 الشخصية الإحالية :

تقدّم شخصية الباشا صورة مرجعية لواقع تاريخي عاشته مملكة طرابلس إبان الحكم العثماني ، حيث كانت طقوس المؤسسة الاجتماعية آنذاك تفرض على الناس المحافظة على الألقاب التركية لأهل القصر ، لذلك حافظ السارد على صيغة (البكّ وسيدي وللاً) كسابقة إسمية للشخصيات الفاعلة في الحكى.

اللافت للانتباه أنّ شخصية الباشا تمثّل بؤرة محكي الأقوال إذ لا يكاد يخلو أي مشهد حوارى من تدخلات الباشا ، لذلك تتشكّل شخصية البطل تدريجيا عقب تراكم العلامات الموضوعاتية الدّالة على المحتوى الدلالي للعنوان ( يعقوب وأبناؤه) فالباشا هو يعقوب زمانه ، لكنّه يمثّل صورة منفصلة عن نموذج يعقوب عليه السّلام.

ينشغل الباشا بقضية الملك وحبّ السلطة إذ يستحوذ بمفرده على الموضوعات القيمة للرواية ، وبالتالي فهو يستقطب اهتمام جميع الشخصيات الأخرى التي تمثّل أقوالها محور التشاكل الوظيفي مع آرائه وانفعالاته ، ففي حوار بين الباشا وحسن بك حول لعنة الممالك يتّضح جليا أنّ المكانة النفسية للمتجاوز بالنسبة للباشا تسهم في توليد المعاني الحافّة للقضية الجوهرية المطروحة للنقاش ، فحسن بك هو الإبن البكر للباشا أي أنّه الأولى بإرث كرسي العرش ، لذلك يحذّره الوالد من صفقة العبور إلى الجحيم:

(( أنت تضحك في حين يجب أن تبكي.

-ولماذا عليّ أن أبكي ؟

-لأنّك سترث عنيّ المملكة وهي في أسوأ الأحوال ممّا نلتها أنا عن أبي.

-هل هي لعنة ؟

-تطلّع إليه الباشا بعينين جاحظتين ومطفأتين. قال :

-تستطيع أن تقول إنها لعنة. لعنة الممالك ((11).

إن محكي الأقوال يضع الخصائص التركيبية للنص الروائي في مواجهة القراءات المتعددة التي تتعلّق بتفكيك السنن الخطابية المنجزة من قبل المؤلّف ، هذه السنن التي تتعلّق بنمط الكلام المخصّص لكلّ شخصية تبعا لمسارها الأيديولوجي ضمن بنية الحكاية ، ففي رواية (يعقوب وأبناؤه) يفضّل السّارد منح شخصية الباشا كلّ المفاتيح الإجرائية المتعلقة بموضوع النّص ، كحديثه عن العرش والأعداء والإرث ، ففي حوار له مع جاريتيه " إستير " يلخّص الباشا تفاصيل الحكي في مقولة واحدة :

(( استكرت استير بنظرة فأضاف الباشا :

أركان الدنيا في عرف الرجال ثلاثة: امرأة ومال وسلطان ألن توافقيني على هذا؟

هزّت إستير رأسها إيجابا فمضى الباشا :

-إذا كنت أنا مريد النساء في هذا الثالوث ، ويوسف مريد السلطان ، فلا بدّ أن يكون حسن بك الركن الثالث في الثالوث كمريد للمال. فكيفتريديني أن أستغني عن حسن دون أن نتزعزع أركان المملكة بقصاص)) (12).

يقدم الكوني من خلال شخصية الباشا صورة حقيقية عن واقع الحكم في الوطن العربي الذي يميل إلى توارث السلطة أبا عن جدّ ، لذلك فإنّ النسق الحكائي الضمني الذي قدّمه المؤلّف يسائل مستويات الذاكرة التاريخية للقارئ من خلال تفكيك سيميائية القول المحكي عن الشخصيات من خلال ظروف إقامتها بأمكنة معينة لذلك فإنّ أي رواية مهما كانت تخيلية (( تعكس ، المجتمع من خلال شخصياتها المتصارعة ، التي تحمل أبعادا دلالية وإيديولوجية ، لذا تصبح

الشخص : مرابا تلتقط الصراع الاجتماعي ، والتفاوت الطبقي بكل شفافية ، ونقله في شكل تصور إبداعي على صفحات التخيل الحكائي ((13).

تقدّم شخصية الباشا توقعات نهاية مسار حدث ما بدل الاكتفاء بوظيفتها التمثيلية حيث لا يلجأ بعدها السارد إلى تأطير توقعاتها فعند بلوغ أزمة المجاعة والطاعون حدًا لا يطاق ، اقترح الباشا بيع العبيد وأواني الذهب لشراء الأكل والدواء ، لكنّ السارد لم يتتبع تفاصيل القضية لأنها تعمل على تحجيم أدائه السردية ، كما تتطلب جهدا لغويا لشرح طرائق البيع ، لذلك اكتفى السارد بنقل أقوال الباشا مع الخازندار حول موضوع أزمة المجاعة فيما يلي:

(( سكت الخازندار انتظارا لفرصة أنسب . قال الباشا :

-في القصر عبيد زائدون عن الحاجة. تستطيع أن تبيع منهم الشطر الأكبر بالمزاد)).(14)

(( فتح الباشا عينا واحدة قال :

-حسنا. مطابخ القلعة ملآنة بأواني الذهب. ما حاجتنا إلى أواني الذهب إذا كان الناس يموتون جوعا ؟ تستطيع أن تأمر بصهرها وبيعها ، على الأقل القسم الأكبر منها فيما إذا اعترضت النساء)).(15)

إضافة إلى هذا يطلب الباشا رأس أخيه مصطفى القرماني المقيم بتركيا ، كما يمنع الناس عن الهجرة والهروب من وحش الطاعون ، وفي ذلك رمز لعبودية الشعوب ، لذلك تقوم الملفوظات السردية بتشخيص الواقع المادّي لتلك الفترة التاريخية من حكم الأتراك ببلاد المغرب العربي .

إنّ تقديم النسق الاجتماعي والثقافي لمرحلة زمنية ما يتطلب ذكر أسماء العلم الخاصّة بتلك المرحلة كلقب الباشا والبيك وما يلحق بها من خدم وجواري وعبيد ، لذلك فإنّ صياغة قصّة تاريخية معيّنة تخضع

لسلسلة من السنن الأيديولوجية القابلة للفكّ والتشفير في كلّ زمان ومكان ، فخصوية الباشا تنطبق على كلّ زعيم سياسي يرفض التهاور والتداول على كرسي السلطة وهو حال الرؤساء في الدول النامية اليوم، لذلك فإنّ (( وظيفة المحمولات الموصفاتيّة تكمن في تحديد الشخصية إما بالإحالة على خصائصها الطبيعيّة " الخصائص الفيزيولوجية ، الانتماء العائلي أو الطبقي أو الجغرافي ...". وإمّا بالإحالة على موصفات شخصيات أخرى مالكة لموصفات مشابهة أو مخالفة للأولى وبعبارة أخرى ، فإنّ الأمر يتعلّق بتحديد الشخصية إما إيجابيا " الإحالة على خصائصها الذاتية " وإما سلبيا " وضع الشخصية في تقابل مع الشخصيات الأخرى" ))<sup>(16)</sup>.

تشكّل شخصية الباشا نقطة استدلالية بالنسبة للشخصيات الأخرى لأنّ البرنامج السردى المخصّص لها واضح المعالم ، وذو مرجعية محددة تنطلق من الإشارات التاريخية الدّالة على القيمة المهيمنة لعائلة آل القرماتليّ إبان فترة الحكم العثماني لأرض ليبيا ، لذلك لا يجد المؤلّف حرجا في تسريد الوقائع التاريخية دون خوف من الرّقابة السياسية التي تقوم بمصادرة الأعمال المشوّهة لصور التاريخ المجيد للوطن.

### 2-3 - الشخصية التخيلية :

يطرح عنوان رواية ( يعقوب وأبناؤه) إشكالية بعث النموذج الحقيقي للشخصيات داخل النموذج المتخيّل ، من خلال استرجاع الصورة الذهنية للشخصية الموجودة بالفعل مع إحداث مفارقات وانزياحات دلالية عن النموذج الأصلي للشخصية .

يحافظ إبراهيم الكوني على الدّال الصوتي لاسم شخصية يعقوب ويوسف والمتعلّق برسم حروف إسمها ولكنّه يحدث على إثرها انزياحا

في المدلول الحكائي للشخصية التي تخضع لنظام المدلولات الأخرى في النص ، ومنها الإطار الزمني (نهاية القرن الثامن عشر) وكذا الإطار المكاني ( مملكة طرابلس - القصر ...).

يسهم أيديولوجيم العصر في تغيير منظور القصة الواقعية للنبي يعقوب سواء من ناحية اشتغالها الرمزي أو تجليها الطبيعي على محاور المتتاليات الحكائية التي وضعها المؤلف ، لذلك فأنماط العلاقات السردية تفرض على القارئ إهمال مواصفات النموذج الأصلي للشخصية والمحافظة على خيط الحكمة السردية للوصول إلى الغاية المنشودة وراء الحكاية الجديدة .

يشرح السارد لغز العنوان في حوار بين الباشا وابنه حسن بك الذي جاءه شاكيا إليه مكائد أخيه يوسف :

(( غمرت وجنتيه سحابة شحوب. أضاف:  
- هذه مكيدة جديدة من محبوبك يوسف.  
اعترف الباشا :

-يوسف محبوبي حقًا ، هل تعرف لماذا ؟  
لم ينتظر جوابا. أجاب:  
-لأنّه يوسف وأنا يعقوب ((.(17)

حافظ قول الباشا على أحد أركان القصة التاريخية المتعلقة بتفاوت درجات حبّه ليوسف عن بقيّة إخوته ، ولكنّه لا يمثل في الحقيقة يعقوب الحقيقي الذي كان يرفض الظلم والخديعة خلافا ليعقوب المتخيّل ، لذلك فالسارد استعار اسم العلم فقط ليوقع القارئ في فخّ اللعبة السردية(( وهذه المقصدية التي تضبط اختيار المؤلف لاسم الشخصية لا تنفي اعتبارية العلامة ، ذلك أنّ الإسم هو علامة لغوية وليس هناك ما يجبر المؤلف على وضع أسماء شخصية لأبطاله)).(18)

يتّضح أنّ طريقة رسم المواصفات الأخلاقية لشخصية الباشا وولده يوسف تبين حصول المفارقة الضدية بين الكائنات البشرية والكائنات الورقية ، فليس كلّ يوسف رمزا للمحبّة والسلام ، لذلك فالرواية غير مطالبة بنقل الحقائق وبناء نماذج شخصيات تخييلية على شاکلة النماذج البشرية الطبيعية ، وهذا ما دعا إليه المنهج البنيوي الشكلي الذي يرى (( أنّ الشخصية الروائية تملك ما يملكه الإنسان في الواقع الخارجي من اسم ومنبت وأسرة وأقارب وعلاقات ، ولكن الصلة بينهما لا تعني التطابق ، بل الاتفاق الشكلي فحسب لأنّ الشخصية الروائية مستمدّة من أدبية الأدب ))<sup>(19)</sup>. يحاول إبراهيم الكوني في مجمل أعماله استعارة أدوات التخيل الأدبي لمطابقة القصة التاريخية أو الأسطورية حتى تغدو فضاء مفتحا على عالم مغاير تحكمه أنماط من العلاقات الاجتماعية والسياسية تتجاوز الحاجة الملحة لفهم قيمة الفرد. يهتم إبراهيم الكوني في مدوّنة ( يعقوب وأبناؤه) بتقديم صورة داخلية قريبة من نوات الشخصيات التي تعاني حدّة الصراع بين الجانب الروحاني والجانب المادي المتمثّل في حبّ المال والسلطة ، فكما جاء إخوة يوسف- في القصة الأصلية - أباهم باكين حزنا على أخيهم المفقود ، دخل أبطال الرواية ؛ يوسف وإخوته على الباشا مدججين بالسلاح يشكون سوء حظّهم:

(( أمّا الأشقاء فقد أقبلوا على أبيهم مدججين بحراسهم وكامل أسلحتهم. هناك ناح سيدي يوسف قائلا أنّه يفضّل أن يهلك بيده على أن يهلك بيد شقيقه البك الذي سيبيطش به لا محالة لو انقطعت أنفاس الباشا)).<sup>(20)</sup>

يتّم تحويل المشهد التاريخي الحقيقي ونقله إلى درجات أخرى تتعلّق بعدوانية الإنسان تجاه نفسه وتجاه بني جلدته، فيتحوّل صراع

إخوة يوسف إلى ظاهرة رمزية يتحقق وجودها عبر الزمن ، لذلك فقد يتجلى الرمز بصورته المثلى وتحدث درجة انعكاس قصوى للقصة التاريخية ، فيستعير النص الحكائي أحد أدوات الترميز ويتغير النسق الحدثي تغييرا جذريا وهو ما يعرف بالتناص السلبي الذي تتداخل فيه النصوص المنتمية إلى فترتين زمنيّتين مختلفتين لكنّ وجه التداخل بينهما متباين لأنّ الصورة الاستعارية لا تحافظ على كلّ مقوماتها .

إنّ تجلّي قصّة يعقوب عليه السلام في المحكي السردي (يعقوب وأبناؤه) تفرض على القارئ استحضار السياق الموضوعاتي لتشكّل الحكاية الأصل لأنّ (( الرمز لا يتوقّر على علامات خاصّة به ، ولا يستقلّ بموضوع محدّد كما هو الشأن مع اللسان مثلا ، إنّه في كلّ مكان ، وكلّ شيء صالح لأن يتحول إلى رمز بدءا من السلوك الإنساني ، ومرورا بموضوعات العالم وانتهاء باللغة بحروفها وأصواتها وكذا الإيماءات والطقوس الاجتماعية)).<sup>(21)</sup>

لا يترك السارد الصورة المستعارة المعكوسة عن القصة الأصلية ليوسف دون تعليقات وشروحات صادرة عن الشخصيات في حدّ ذاتها ، إذ ينقل السارد حوارا بين الأخوين سيدي أحمد وسيدي يوسف يبرز فيه مجالات اشتغال الرمز الديني :

(( قال سيدي يوسف:

- لا تحاول أن تذكرني بسلطان المملكة لأنك تعلم أنّ يعقوب سوف يحميني منك كما حماني من غطرسة البك .

تساءل سيدي أحمد بلهجة تعجّب:

- يعقوب ؟

-أجاب سيدي يوسف ببرود :

-أجل . الباشا يعقوب وأنا يوسفه .

تفحصه سيدي أحمد طويلا ، قال :

-أشهد أنّ يوسف منك بريء براءة الذئب من دم يوسف)).<sup>(22)</sup>

تظهر صورة يوسف محوّرة، إذ يتعمّد السارد إنتاج دلالات جديدة يتمّ تداولها في شرح حالات إنسانية أخرى تنوب عن الرمز الديني الذي يشير إلى المرموز له عينه يوسف عليه السلام.

إنّ فكرة التفاعل بين نصّ جديد وأنساق ثقافية قديمة يجسّد علاقات الغياب والحضور عن طريق التوازي ، الاستعارة ، التضمين و التركيب ، فما قدمته شخصيات نص ( يعقوب وأبناؤه) يدخل في باب استعارة النماذج التراثية (( وهي شكل آخر من أشكال مغازلة التراث العربي ، يتجلّى في الاستفادة من فضاءاته وأجوائه . يقوم أساسا على استخدام رموز تراثية وتوظيفها في أنساق سردية حديثة دون ترهين خطابها أو بنيتها النصّية الأصلية)).<sup>(23)</sup> إنّ الاختلاف الوظيفي بين شخصيات المحكي التخيلي المنجز من طرف الروائي وشخصيات القصة الواقعية المدوّنة في الكتب السماوية يبيّن أهمية عمليات التجريب التي يقوم بها إبراهيم الكوني على مستوى الشخصيات ، إذ إنّ إعادة إنتاج الأنساق الثقافية القديمة يبعث فيها روح التجديد والانفتاح على الأنساق المعاصرة لواقع القارئ.وظّف إبراهيم الكوني في أعماله الأولى مجموعة من الأساطير الصحراوية التي تحيل إلى عالم مهمّش هو عالم الطوارق ، لكنّ هذا التوظيف الأسطوري لم يكن متجلبًا بصورة صريحة إذ كانت تشوبه التورية وتحفّه ظلال المعاني لأنّ أحداث الرواية تحتاج إلى أسلبة جمالية لأشكال التعبير ، لذلك فإنّ جنس المحكي السردى يفرض على المؤلف هندسة طرائق المحكي ، فإذا كان المحكي واقعيًا يتمّ استثمار أحد عناصر الحكاية القديمة لأنّ ((الأسطورةكمغامرة فكرية لإنسان العصور القديمة تهدف إلى كشف

الحقائق وفتح آفاق المعرفة ))<sup>(1)</sup> ، أمّا إذا اختار المؤلف تسريد المحكي الفانتاستيكي فإنّه يعمل على إثراء العالم التخيلي بالأحداث والشخصيات فوق الطبيعية التي تعمل على استنكار مضامين الأسطورة الأصلية ، وبالتالي الحفاظ على الموروث التاريخي المقدّس من خلال توظيفه في أجناس خطابية قادرة على استثمار النموذج الرمزي للشخصيات الأسطورية.

في رواية ( يعقوب وأبناؤه) يستردّ المؤلف نموذج أوديب بصورته الصريحة ليثبت للقارئ أنّ طقوس إنتاج القصة الأسطورية يخضع للظروف الاجتماعية التي يعيشها شخص ما في زمن ما ، كما هو الحال مع بطل الرواية سيدي أحمد الذي يعلن صراحة عشقه لأمّه ، فلولو الرباط الأموي المقدّس الذي يجمعه بها لتزوّجها :

(( ابتسمت له للاً حلّومة بعذوبة. داعبته :

-أما زلت تريد أن تتزوجني كما في الطفولة ؟

أجاب دون أن يرفع إليها رأسه :

-لو لم تكوني أمّي لما ارتضيت لنفسني امرأة سواك .

أطلقت الأمّ ضحكة قالت :

-لو لم تكن صغيري الذي جنّت به من بطني لما رضيت برجل

سواك)).<sup>(24)</sup>

أصبحت شخصية أوديب الأسطورية معادلا موضوعيا للشخصيات الروائية التي تجد لها نظيرا في الحياة الطبيعية فإذا كانت القصة القديمة تنفي علم أوديب بنسب أمّه إليه فإنّ السارد في رواية (يعقوب وأبناؤه) يتعمّد توظيف الحادثة من وجهة نظر المحلّلين النفسانيين الذين

يرون في ذلك مرضا عصابيا يصيب الشواذ ، لذلك يمكن القول إنّ ((الأسطورة حكاية مقدّسة تقليدية بمعنى أنّها تنتقل من جيل إلى جيل بالرواية الشفاهية مما يجعلها ذاكرة الجماعة التي تحفظ قيمتها وعاداتها وطقوسها وحكمتها ، فهي الأداة الأقوى في التنقيف والتطبيع والقناة التي نرسخ من خلالها ثقافة ما ))<sup>(25)</sup>.

تستدعي بنية الشخصيات عند إبراهيم الكوني التاريخ والأسطورة للبحث عن القيم الإنسانية الكامنة داخل العادات الاجتماعية لذلك يستعين الروائي بأدوات التحليل النفسي والفلسفي للقضايا الخلافية المتعلقة بصراع الشخصيات حول الثالوث المحرّم الدّين والسلطة والجنس.

#### الإحالات:

- 1- إبراهيم الكوني. ديوان النثر البرّي. دار تنوير للطباعة والنّشر . ط1 قبرص.1991.ص7.
- 2- إبراهيم الكوني. يعقوب وأبناؤه . المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط1. بيروت. لبنان.2007. ص9.
- 3-نضال الصالح.النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة . منشورات اتحاد الكتاب العرب . ط1. سوريا.ص69
- 4- المرجع نفسه. ص 69.
- 5- إبراهيم الكوني . أنوبيس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط1. لبنان.2002. ص6
- 6-المصدر نفسه .ص6
- 7- إبراهيم الكوني. الخسوف ( الواحة). دار التنوير للطباعة والنشر. ط1. قبرص.1991. ص245.
- 8- إبراهيم الكوني. الخسوف.( البئر). دار التنوير للطباعة والنشر. ط2. قبرص. 1992.ص33.
- 9-سعيد الغانمي. ملحمة الحدود القصوى ( المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني).المركز الثقافي العربي. بيروت / الدار البيضاء ط2. 2000.ص 74 .

## مجلة الآداب واللغات — العدد 4 جوان 2016

- 10- محمد الداوي . التشخيص الأدبي للغة في رواية الفريق لعبد الله العروي . دار الأمان للنشر والتوزيع . الرباط. المغرب . ط1 . 2006 . ص111.
- 11- إبراهيم الكوني . يعقوب وأبناؤه . ص18.
- 12- المصدر نفسه- ص 92.
- 13- جميل حمداوي . مقارنة بنوية سردية لرواية أوراق لعبد الله العروي. دار النشر الجسور . وجدة. المغرب. ط1. 1996. ص 24.
- 14- إبراهيم الكوني . يعقوب وأبناؤه . ص52.
- 15- المصدر نفسه. ص 53 .
- 16- سعيد بنكراد . سيميولوجية الشخصية السردية ( رواية " الشارع والعاصفة " لحنا مينا) دار مجدلاوي . ط1. الأردن. 2003. ص 148.
- 17- إبراهيم الكوني . يعقوب وأبناؤه . ص 111 .
- 18- محمد عزام . شعرية الخطاب السردية . منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2005. سوريا. ص16.
- 19- المرجع نفسه. ص18.
- 20- إبراهيم الكوني . يعقوب وأبناؤه. ص 228.
- 21- سعيد بنكراد. مسالك المعنى. دار الحوار. ط1. اللاذقية . سوريا . 2006. ص 159
- 22- إبراهيم الكوني . يعقوب وأبناؤه. ص235.
- 23- صالح الرزوق. القصة المضادة تأصيل الحداثة... تحديث الأصول. مجلة كتابات معاصرة. العدد المجلد 07. ( نيسان / أيار ) 1996. ص95-96.
- 24- فراس السواح. مغامرة العقل الأولى " دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية " . منشورات دار علاء الدين. دمشق. سوريا. 1998. ص17.
- 25- إبراهيم الكوني. يعقوب وأبناؤه. ص112-113.
- 26- فراس السواح. مغامرة العقل الأولى. ( دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية). ص16 .

